2/1

مميزات الممارسة النقدية في الجزائر

ارتبطت الحركة الأدبية في الجزائر بالخطاب السياسي الاجتماعي منذ العشرينيات على الأقل. فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت حركة بعث وإحياء للأصول، وعملت على توظيف كل الأدوات المتاحة بما فيها اللغة العربية وآدابها لخدمة القيم التي أنشئت من أجلها، وهي قيم ماضوية كانت بعيدة كل البعد عن مستجدات الحركة الأدبية والنقدية في العالم، بل كانت متخلفة حتى عن المعارك النقدية التي ظهرت في بعض البلدان العربية، منذ أن كتب ميخائيل نعيمة "الغربال" ومرورا بجماعة الديوان إلى المعارك التي أثارها طه حسين لاحقا.

■ د. مخلوف عامر

● فـ"محمد السعيد الزاهري"، مثلا يكتب مقالا عن "طه حسين" بعنوان "طه ماكر حسين شعوبي" شنّ عليه فيه حملة هجومية كال لـه السبّ كيلا، ودعا إلى حرق كتبه، وطالب بتحريم إدخالها إلى الجزائر، لا سيما كتابه (في الشعر الجاهلي).

ويورد محمد مصايف أنه "هاجم طه حسين هجوما عنيفا، واتهمه بالشذوذ والنزق والشعوبية، واستخدام الأساليب والموضوعات التي يريدها الاستعمار".

كما كان البشير الإبراهيمي يميل إلى السخرية والتهكّم وإلى استعراض عضلاته الثقافية واللغوية ولم تخل مُمارساته من فرض الوصاية وإقصاء الذين لا ينصاعون لشروط الكتابة كما يفهمها.

وهكذا يمكن القول أن نشاط جمعية العلماء وتلاميذها في مجال الأدب والنقد لم يأت بإضافة نوعية بالقياس إلى ما كان يجري من حولها. إنهم جعلوا اللغة العربية أمانة وجعلوا واجبهم أن يبلّغوا هذه الأمانة إلى الأجيال اللاحقة ولكنهم لم يتعدوا ذلك إلى ماهو جديد وعميق. فقد "كانت النظرة التقليدية إلى الأدب والفن عندنا لا تهتم بالمنطق والعقل والعاطفة، بل ترتكز على الموروث الديني لحماية النفس من الضياع في عالم الكولون الاستعماري. فلم تخرج نظرتهم إلى الحياة عن الأخلاق العامة والعادات المحلية ومحاولة محاكاة القدماء لفظا ومعنى".

"إن فضل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي أنها لفتت الانتباه إلى أهمية المشكل الثقافي بوصفه عنصر تميز وهوية، إلا أن ضعفها يكمن في أنها بقيت عند هذا الحد أو أنها ربطته بـأهداف إصلاحية سياسيا. إن وضع اللغة العربية وثقافتها والدين الإسلامي في لُبّه المعركة من طبيعة الحركة الإصلاحية، ولكن يعود الفضل أيضا إلى الدور الذي لعبته تشكيلات الحركة الوطنية وخاصة حزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديمقراطية والتي أعطته بعدا ثوريا مناهضا للاستعمار".

إن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية بقي أسير المنطلقات الإصلاحية، ولذلك فإن الدعوة إلى التجديد والاستفادة من الأدب الإنساني التي نادى بها "رمضان حمود" لم تجد صداها، فساد الاتجاه المحافظ الذي يجعل الشعر العمودي في المقام الأول، ثم المقالة التي تصلح للدعاية والوعظ، وتأخر ظهور الأشكال النثرية الحديثة، بينما كانت قد خطت خطوات متميزة شكلا ومضمونا في أوساط الأدباء الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية.

ومن غير ما دخول في نقاش من النوع الذي أثـاره طه حسين عن أسبقية الثورة أو أسبقية الأدب، أو أن ثورة الشعر هي التي تنتج ثورة الشعب على حدّ تعبير "محمد العيد آل خليفة" قوله: ثورة الشعر أنتجت ثورة الشـعب وعادت عليه بالآلاء فإنه من الواضح أن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية كان تابعا لأحداث حرب التحرير المتصارعة، مما جعل الأناشيد الشعرية تتصدر الموقف الأدبي في نظم حماسي يستمد شرعيته من هول الحدث أكثر مما يستمدها من طبيعته الفنية.

وربما كانت فترة الاستقلال أدعى ـ لما فيها من هدوء نسبي ـ إلى الميل نحو كتابة الفن القصصي لكن صورة الحرب / الثورة ظلت تلاحق كل الكتّاب، سواء من باب الحنين فالاستحضار فالوصف، أو من باب الحنين فالنقمة فالنقد.

فروايات مثل (المؤامرة) 1982 للمرحوم محمد مصايف، و(البزاة) 1982 لـمرزاق بقطاش، و(هموم الزمن الفلاقي) 1985 لـمحمد مفلاح، مثلا نجدها لا تتعدى الوصف بهدف التغنّي بمجد صنعناه، بينما نجد (التفكك) 1982 لـرشيد

أحمد منور

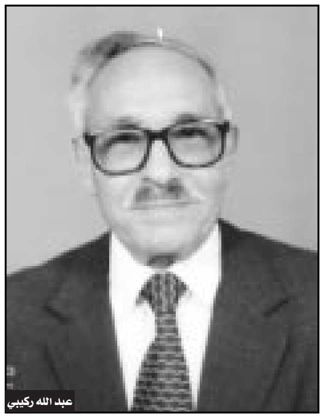

عبد الله ركيبي

بوجدرة أو (اللاز) للطاهر وطار "1972، من الكتابات التي لم تبق في حدود التعاطف والوصف، بل تجاوزت ذلك إلى النقد، رغم أن هؤلاء المؤلفين جميعا عاشوا الظروف نفسها تقريبا.

صورة الثورة في هذه أعمال "الطاهر وطار ورشيد بوجدرة وواسيني الأعرج وأمين الزاوي ومرزاق بقطاش والحبيب السائح" – على تفاوت فيما بينهم – لم تحضر بوصفها رقعة أرجوانية تزيّن النص الأدبي ولا كجسر يمكّن الكاتب من العبور إلى اكتساب الشرعية الأدبية، وإنما الارتداد إلى صورة الحرب يمثل مرتكزا شرعيا نقديا نقيضا لشرعية تاريخية يمثلها الخطاب الرسمي بشكل زائف.

وهنا يتداخل السياسي والاجتماعي والنفسي والتاريخي وتقرّصر أية مقاربة نقدية عن ملامسة الإشكالية التي يطرحها النص إذا هي اعتمدت منطلقا أحاديـا، وإذا هي لم تتسلح بوعي واقعي وتاريخي.

على أن الفترة التي برز فيها البعد الاجتماعي في الإبداع وفي المحاولات النقدية على حدّ سواء، هي فترة السبعينيات إلى درجة أن الخطاب الرسمي – وهو الخطاب الاشتراكي يومئذ – قد انعكس بطريقة شبه آلية أو آلية في كثير من الأعمال، مثل:

(الأكواخ تحترق) 1982 لـ"محمد زتيلي" و(الشمس تشرق على الجميع) 1978 لـ"اسماعيل غموقـات" و(الزلزال 1974) لـ"الطاهر وطار") و(زمن النمرود 1985) لـ"لحبيب السائح" وبعض كتابات "واسيني الأعرج" و"الزاوي أمين" و"عمار بلحسن" و"عمار يزلي..."

إن الكتّاب المبتدئين في فترة السبيعنيات، وحتى غير المبتدئين من الذين يستعملون اللغة العربية كانوا يكتبون تحت مظلة الخطاب السياسي الأيديولوجي السائد، ورأو في هذا الخطاب ما يجسد قيم العدالـة الاجتماعية التي صارت حلم الأغلبية المفقرّة. إلا أن انعكاس هذا الخطاب بوعي أو بغير وعي في أعمالهم، لم ينُجهم من الفجاجة والتسطيح إلى حدّ تغييب أدبية الأدب، حتى ليبدو العمل حاملا لفكرة أو موقف لا للذات المبدعة بوجدانها ومشاعرها.

> **الإضافة النوعية التي جاءت بها البنيوية هي أنها نبهّت إلى ضرورة انتشال الأدب من الفجاجة الواقعية والتسطيح ومكّنت النقاد من استخدام أدوات راقية في التعامل مع النصوص**

ولقد صحب هذا التوجّه في الإبداع توجّه نمطي على شاكلته أيضا في المحاولات النقدية، كما امتدت إلى دراسات أكاديمية ومنها "السمات الواقعية للتجربة الشعرية في الجزائر لـ"زينب الأعوج، و"الثورة الزراعية في الأدب الجزائري لـ"ربيعة جلطي".

ولكن مهما يكن لهذا النزوع الأيديولوجي / الاجتماعي من عيوب، إلا أن الموقف النقدي المنتظر ليس بالاستحسان أو الاستهجان، بل بممارسة نقدية تكشف عن جدلية الخفاء والتجلي فيما يستأهل النقد حقا. لأن عزوف أسماء بارزة من أمثال "محمد مصايف" و"عبد الله ركيبي" عن دراسة الكتابات الجديدة، قصة ورواية وشعرا ليس له ما يبرّره سوى عدم امتلاك الأدوات النقدية الكافية لمعالجتها أو التملّص من اتخاذ موقف – ولو أدبي – من الموقف الأدبي المعروض. وأن الدلالة الاجتماعية تُعدّ بُعدا أساسيا في الإنتاج الأدبي، وتغييبها لا يعني غيابها، ومجرد الاعتراف بها على الصعيد النظري والقفز عليها أثناء الممارسة النقدية، أمر لا يبرره زوال المعسكر الاشتراكي. إذ العمل الأدبي قد يوحي بدلالته تلك منذ قراءة عنوانه.

فأنت عندما ترى "الحوات والقصر" على صفحة الغلاف، قد يتبادر إلى ذهنك هذا التوازي الأولي أو قـل هذا التناقض بين فقر الحوات وغنى القصر، بين المحكوم والحاكم، بين المقموع والقامع إلى غير ذلك مما يجعلك تحتمل منذ البداية علاقـة غير متكافئة بين طرفين، إن لم تكن متناقضة.

وعندما يقابلك عنوان "الجازية والدراويش" 1983 قد تستحضر امرأة واحدة في مقابل مجموعة الدراويش، وربما جالت في ذهنك قضية المرأة بكل ما تعرف عنها من خلفيات، وقد تستحضر هذا الاسم التاريخي في سير ة بني هلال، وقد تتشكل لديك فكرة مسبقة عن الدروشة وطقوسها وما ينجرّ عنها من العادات والتقاليد وهي من صلب الحياة الاجتماعية.

وإذا قابلك عنوان "سيدة المقام" 1996 فقد ينصرف ذهنك إلى امرأة سيدة وقور فتلغي المرأة العاهرة من حسابك، وإذا دخلت بلغة دينية فهي موازنة بين الحلال والحرام، كما قد يوحي إليك المقام بالمكان المقدس لأنه مقام ولي صالح ولذلك فهو مقام يزار "جيت نزور مقام سعدية".

هذه وغيرها من التأويـلات تلاحق القارئ الناقد لأن النص الأدبي الناجح لا شك يمليها عليه، ولكن إذا كان هذا القارئ الناقد ـ بدوره ـ يتوفّر على إمكانات القراءة المفتوحة.

صحيح أن النقد الأيديولوجي أو المضموني أو التركيز على الدلالة الاجتماعية قد أفقد النص الأدبي أدبيته إلى حد كبير، ولم يرق بالنص من الانعكاس الآلي إلى مستوى انعكاس الانعكاس، وساهم أحيانا في إشاعة الأدب الصغير وإغفال الأدب الكبير، ولكن هذا ليس مبررا للانتقال من النقيض إلى النقيض. أي إلى إلغـاء الدلالة الاجتماعية أو السكوت عنها.إذ (يمكننا القول بحقيقة جوهرية هي أن الأيديولوجية ليست غريبا مقحما في النصوص الإبداعية، بل هي على العكس من ذلك عنصر بنائي جمالي تشترطه النصوص السردية الروائية، التي تبني جماليتها على أسس تستند إلى خلفيات نظرية تجعل الإنسان محورها الأساسي، وما تتطلبه حقيقة وجوده من صراع للمصالح والأفكار).

ولعل الإضافة النوعية التي جاءت بها البنيوية هي أنها نبهّت إلى ضرورة انتشال الأدب من الفجاجة الواقعية والتسطيح ومكّنت النقاد من استخدام أدوات راقية في التعامل مع النصوص، لكن الاتجاه البنيوي الذي يعمد إلى تفكيك النص لمعرفـة بنيته ثم يعيده إلى هيئته ويبقى في حدود الإطار اللغوي مهما كانت تفرعاته، إنما هو اتجاه يجعل من عمليتي التحليل والتركيب غاية في ذاتها. ومهما كان بارعا في إنتاج المصطلحات وفي الاستفادة من مختلف العلوم، إلا أنه يظل قاصرا عن أن يحيط بجوهر العملية الإبداعية.

فأما مشكلة النقد عندنا فهي ذات طبيعة أخرى. إذ باستثناء جهود محمد مصايف وعبد الله ركيبي التي بقيت في حدود المدرسة التقليدية، وبغضّ النظر عن الدراسات الأكاديمية التي لم ترِ النور بعد، فإن وجوها قليلة جدا يمكن أن يعُوّل عليها مستقبلا من أمثال الأساتذة عبد الحميد بورايو و رشيد بن مالك و أحمد منور و السعيد بوطاجين و عبد القادر هني وجمال غلاّب من الذين مكّنتني الظروف من الاطلاع على أعمالهم.

والظاهر أن الأدبيين لا يقُبلون على المحاولات النقدية، وإذا هم أقبلوا عليها في بداياتهم سرعان ما ينصرفون إلى غيرها، كما انقطع محمد ساري إلى كتابة الرواية، ومع أن مساهماته النقدية كانت تشهد له بحضور متميزّ.

يتبع

الكتابة النسائية في الجزائر

إن المرأة الكاتبة في الجزائر ، لا تزال في سياق التجريب ، و البحث عن مداراتها ، قصد الخروج من الشرنقة النفسية و الاجتماعية و التاريخية المضروبة حولها بإحكام شديد.

■ عبد الحميد شكيـل

● الكتابة مظهر جمالي و دلالي، تحيل إلى فيوضات الذات، و تشظيات الأنا، في بوحها، و حركيتها المتنامية، عبر انزياحات كثيرة تشير –في غالبيتها– إلى تلك الجيوب البعيدة الغور، التي تتماهى في حركية التاريخ، و منعرجاته المتشابكة، جراء عوامل شتى، منها ما يرتبط بجنس الكتابة ذاتها، كونها : حرونة، و مشاكسة، و عصية، ومنفلتة، تأبى الخضوع، و الانقياد، تحبذ الحركية المبدعة المتصاعدة مع توتر الأنا، و تناغمها الهارموني، قصد تفريغ الذاكرة من هواجسها، وإحباطاتها، و نزوعاتها، المرتبطة بالقمع ، والاضطهاد، و الأسوداد الذي يهيمن على النفس في تعاطيها المبدع مع مكونات الأشياء، و جمالية المكان، و مشمولات الذات، و منها ما هو نفسي، تاريخي، يعود في أصله إلى كون ″الأنا المبدعة″ شديدة الحرص، و الحيطة، مما يحتم عليها التحرك بحذر، و ارتياب، و قلق، فوق أرض رملية، رخوة ورجراجة، لا تمنح لفاعلية الحركة البعد المؤثر، قصد تفعيل اللحظة، و جعلها تتنامى عبر مسارات الإبداع، التي هي ڑحتما– شديدة الحساسية، لكل النـزوعات الطارئة و الآنية، كما يرتبط ذلك بـ ″الذات الكاتبة″ التي هي في تضاد جمالي دائم، مع نوازع كثيرة، تنهش في كيان المبدع، و جاهزيته اللغوية ، و الإبداعية ، بهدف تعطيل ، و كبح ″الاندفاع المبدع ″، و من ثمة إجهاض الفعل الكتابي، من خلال الضغط النفسي ، و القهر الاجتماعي ، واحتكار اللحظة التاريخية ، في مساراتها ، التي هي ڑ في الأساس ڑ متذبذبة، وغير مستقرة ، الأمر الذي يحتم على الكاتب المبدع، و ضع تصور منسجم ، حتى لا تنفلت منه ″الراهنية الإبداعية ″التي دونها يصير بندولا يتحرك في فراغية المكان، و الأشياء ، دون أن يقول شيئا مهما، و منجزا، وهذا –ربـما– ما يفسر لنا تلك ″ الانقطاعـات الإبداعية ″التي كثيرا ما يصاب بها المبدع، عبر حركيته الإبداعية، و هنا يكون الكلام مخصصا للكاتب المبدع ، و الرسالي ، لا الكاتب العراب ، الذي يتموقع حسب ما تمليه ″ثقافة الخوف ″والمنفعة ، و الارتباك ، بل و الخيانة والفرز بين الكاتبين ، دقيق و صعب ، و مربك ، خاصة في هذه الأزمنـة الملتاثة ، و الخرقاء ، التي تفتـقت فيها جيوب : الخيانة ، و الغدر ، و كثير من الخبل الفكري ، و الخداع البصري ، الشيء الذي جعل الكثير من ذوي النوايا الحسنة يسقطون في شبكة، ″ المبدع الانتهازي ″ الذي يلبس لكل حالة طارئة لبوسها، و يتزيـا في أشكال ، و ألوان مختلفة يصعب على الإنسان كشف ألاعيبه، و دياثته، وخبثه الجهنمي، و الذي يمكن توصيفه هنا بـ ″المثقف الوغد ″ الذي يكرس بنى ثقافية : جبانة، ومداهنة ، و خسيسة ، تضع في أولوياتها منافع الذات، و مكتسباتها ، كمهمة أساسية منجزة ، يهون دونها كل شيء ، حتى الطعن من الخلف ، و التخلي عن الشرف ، و قيم الذات الحرة ، و هذا الأنموذج – للأسف الشديد – أخذ يتكرس في حياتنا الفكرية والإبداعية ، بشكل لافت ، مما قد يشكل انحرافا خطيرا في ماهية الكتابة ، و لذاذاتها ، التي تحيل في أيقوناتها المفترضة إلى قيم : النبل ، و الكرامة ، و النضال ، و المحبة ، و صفاء السريرة، بما تنطوي عليه من المحاسن العالية.

هذا المدخل كان ضروريا ، و هاما ، قبل الحديث عن ″إشكالية الكتابة النسائية في الجزائر ″التي لا أفصلها عن السياقات العامة للكتابة في الجزائر إلا من حيث : ″الخصوصية و التميز ″ڑ إن حدث ڑ ذلك أن الكتابة النسائية كمفهوم نقدي و جمالي ، ظهرت متأخرة في الجزائر ، و هو تأخر طبيعي ، جراء الأوضاع التاريخية ، و الإجتماعية ، و الثقافية ، التي مر بها المجتمع الجزائري في حركيته التاريخانية الصعبة، التي لم تعرف الاستقرار ، والهدوء ، إلا في فترات قصيرة ، و متقطعة ، و التي لا يعتد بها ، و هي بالضرورة غير كافية لخلق ظروف بسيكوذاتية ، تمكن المرأة الكاتبة من الذهاب المبدع ، إلى فسحة الذاكرة ، و استنطاق مكنوناتها، و كوامنها ، و أحزانها ، المسربلة بالكثير من القهر ، و الخيبات ، و الانكسارات ، والتشويه الفكري ، والنفسي ، الذي ظل لحقب طويلة ، كماشة محكمـة ، و كوة قاتمة ينظر من خلالها إلى المـرأة على أنها : الضلع المكسور والجناح المهيض ، و الرؤية القاصرة ، و الإنسانة المقعدة ، التي لا يمكنها أن تشارك في أية حركية تمكنها من الخصوصية والتميز.

زهور ونيسي

ربيعة جلطي

فاطمة غولي

فضيلة الفاروق

إن المرأة الجزائرية ، على امتداد التاريخ ، كانت مهمشة ، و مقصية ، تعيش في ظل الرجل ، و تابعة له ، تعامل كمتاع ، ومتنفس ، بعبارة أصح كانت تعامل بمثابة ″وعاء بيولوجي ″يستجيب لرغباته ، و قهره الشبقي ، قصد إنجاب ذرية كثيرة ، للتفاخر ، و التباهي و إبرازا لقدراته ، و تحقيقا لفحولته المحبطة.

إن الرجل في الجزائر ڑللأسف– يعاني هو الآخر من القهر ، و الكبث ، على أكثر من مستوى ، الشيء الذي جعله يصرف كبته ، و بؤسه التاريخي للتضييق على المـرأة ، و ممارسة شتى أنواع العسف عليها ، معتبرا ذلك من أدبيات ″القوامة″ وهذا بالأساس من الأسباب الجوهرية التي جعلت المرأة الكاتبة لا تظهر إلا في المراحل التاريخية المتأخرة من نشوء الدولة الوطنية في الجزائر ، التي أعطت للمرأة بعضا من حقوقها ، و مكنتها من محاولة المشاركة في رسم مشهد الحياة العام.

إن المعوقات الكثيرة التي وقفت ، و تقف في وجه المرأة ، حالت دون انخراطها الجاد في عالم الكتابة ، الذي يستدعى حالة نفسية ، و اجتماعية ، ذات ملامح موصوفة ، الشيء الذي كانت تفتقر إليه المرأة ، و أرى أن الكثير من هذه المعرقلات ما تزال تعاني منها المرأة الجزائرية إلى اليوم ڑ مع تفاوت في الحدة ڑ تبعا للوسط الذي تعيش فيه ، و كذا انتشار الثقافة و الوعي المجتمعي ، و الطفرة التي حصلت في البلاد بعد الاستقلال الوطني.

إن السؤال الأكثر جدارة بالطرح في هذه المرحلة هو : هل هناك كتابة نسائية في الجزائر ، تستجيب لمضامين المصطلح ، و تفريعاته ؟ أعني هل هناك تراث كتابي ، و إبداعي ، نسائي يندرج تحت هذا الملمح النقدي و الجمالي ؟

أرى أن الكتابة النسائية في الجزائر –لحد الساعة –لم تتأسس مفهوما نقديا ، جماليا ، يحسن الركون إليه و القيام من خلاله بدراسة حقيقية ، تضع في مقدماتها : دلالات المفاهيم النقدية ، و الجمالية والكتابية الصحيحة لتجنيس الحالة و توصيفها .

إن الطروحات الرومانسية حول ماهية الكتابة النسائية في الجزائر نخشى أن تجعلنا ننساق هكذا بعفوية و سذاجة، نحو تأصيل الوهم الجميل ، الذي نأمل أن يتحقق بفعل المثابرة ، والجهد ، والحفر المعرفي اللدود.

إن القول بـ ″الكتابة النسائية في الجزائر ″قول في حاجة إلى مراجعة ، و تدقيق ، نقدي ، و فني ، وجمالي ، يستقرىء التاريخ ، و يعطي للمفاهيم علميتها ، و أبعادها الصحيحة ، حتى لا نقع تحت طائلة ″الحماسية المفرطة ″ التي لا يمكنها – بالتأكيد –أن تؤسس لكتابة نسائية ، أو أية عملية كتابية أو إبداعية أخراة.

إن العدد القليل من النصوص الإبداعية النسائية ، المنشورة في الجزائـر – و التي تعد على الأصابع – لا يمكنها أن تشكل دعامة قوية لشرعية الطرح.

و القول بأن هناك كتابة نسائية في الجزائر ضمن شروطها و سياقاتها التاريخية التي تعني التراكم، و التجربة الأصيلة في تجلياتها الحداثية ، وهواجسها الإبداعية ، قول يحتاج إلى عملية مسح ، و استنباط و كشف ، ليس الآن مجالها.

إن المرأة الكاتبة في الجزائر ، لا تزال في سياق التجريب ، و البحث عن مداراتها ، قصد الخروج من الشرنقة النفسية ، و الاجتماعية ، و التاريخية المضروبة حولها بإحكام شديد ، مما يجعل ذهابها في محددات الكتابة ، بتجلياتها الصارمة ، ومدامكها القوية ، أمرا يتطلب الكثير من الصبر ، والمجاهدة ، و التأسيس القائم على نظرة شمولية، تعطي لفلسفة الكتابة ، و جماليتها ، طقسها الخاص وميسمها الدال.

إن الكتابة النسائية في الجزائر ، في بحثها عن المضامين ، و الأطر الفنية ، و المدلولات التأصيلية، تحتاج إلى الكثير من المعاناة ، و القرائية ، والتوصيف لمرحلة من النصاعة الأدبية والتاريخية ، التي هي ڑ بالحتم ڑ ليست في المتناول ، سواء على مستوى الملمح الاجتماعي ، أو السند الإبداعي العام للمرأة.

إن الوعي العام في بلادنا، مازال ينظر إلى المرأة، نظرة شك ، و ارتياب، و يتعاطى معها كجنس قائم بغيره، لا بذاته ، أي أنه ما زال يرى فيها تلك الذات الهشة ، و الحائرة، التي تبحث عن سند قوي لدعمهما و حمايتها من شرور النفس ، و نوازعها.

إنها في المنظور العام ، غير مؤهلة للدخول في مسالك الحياة ، و مقتضياتها ، أي أنها ناقصة في عقلها و دينها ، و هذا الطرح البطريكي القاسي، يتنافى كلية مع خصائص الإنسان ، و مفهوم الكرامة الربانية التي خص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان، إذ فضله على كثير من خلقه تفضيلا منجزا، لا مجال فيه للحذلقة ، و تفضيل الله للإنسان أمرا كليا لا جزئيا.

علينا جميعا العمل على تحرير المـرأة من ″ثقافة الفقيه″و غيبياته ، و طروحاته البائسة، التي لا تصمد أمام وهج المنطق، و صوابية الجدل، خاصة في زماننا الحالي.

و تبقى أمام المرأة في بلادنا الكثير من المصاعب، و المتاعب، و المراحل ، التي يجب أن تحسم أمرها تجاهها، حتى تتمكن من ولوج عالم الكتابة، الذي هو : تعبيـر عن الذات ، و هواجسها ، في حزنها ، وتحولاتها التاريخية و الاجتماعية ، و ما ينجم عن ذلك من مواقف ، و رؤى ، و خيارات ، قد يصعب على المرأة الكاتبة تخطيها إذا لم تكن مدججة بالوعي، و الجرأة، بل و الصدامية التي هي حالة مفترضة ، في مجال الكتابة ، و دروبها التي لا تعرف : الخوف ، و التردد ، و الوسطية ، و الانكفاء.

إن الإبداع خارج مفاهيم الحرية ، و الجمال ، هو ضرب من العبث ، الذي يفضي في المحصلة إلى تعويم قيـم : الرداءة ، و التخلف ، و التبعية ، والدونية ، التي لا تتماشى أبدا مع مفهوم الكتابة والإبداع في سياق مقتضيات مسطرتهما الصارمة.

إن هذا الكلام لا يعني البتة ، انعدام كتابة نسائية في الجزائر ، بل هو في حقيقيته ، و مضمونه ، وبعده الرامز ، دعوة تحريضية للمرأة المبدعة، لحرق دشم المواربة الزائفة، و الظهـور بمظهر حماسي ، و إنساني ، تحقق من خلالهما ذاتها ككيان بشري يتمتع بكل الخصائص ، و المكونات ، التيتمكنه من المشاركة المبدعة في صنع الحدث، وخلقنة الموقف التاريخي الذي لا يؤمن بالكمون والزوايا المظلمة.

إنني من هذا المنبر ، و نحن نحتفي بالكتابة والكاتبة المبدعة ، أدعو إلى منح المرأة الجزائرية كل الفرص، و كسر كل التعلات ، لتقول كلمتها الذاتية ، و الإبداعية في سياق التحولات التي تمر بها البلاد ، حتى لا يبقى صوت الرجل هو الصوت الوحيد ، والمهيمن على الظاهرة في تاريخانيتها وإبداعيتها. إن التناغم الجمالي في هذا المعنى يعطي للإبداعية الجزائرية ملمحا جماليا و جميلا ، يشي بالكثير من الخصوصية و الفردانية والبهجة .

نحن ضد الصوت الواحد ، و الوحيد ، و المهيمن ، لأن ذلك يتنافى و طبيعة الحياة ، التي تقتضي المشاركة و المشاركة الحقيقية ، و المنسجمة مع المفاهيم الفنية ، و الفكرية ، و الفلسفية ، والجمالية ، التي تؤسس لمثل هذه الظاهرة فيتساوقها المبهج، و شعرانيتها المحببة.

و في البال ، تبقى الكتابة النسائية في الجزائر قضية مثارة ، على الصعيد النقدي والتاريخي،قصد رصدها في مضانها ، و ضمن شروطها التقنية، دون الوقوع في دائرة الإعجاب ، و النرجسية ، لتي تغتال فينا : الحـس ، و اليقيـن ، و التجاوز ، وتجعلنا نركن إلى يقينيات بائسـة ، قد لا تكون متحققة في الواقع المعيش ، و المنجز الإبداعي .. والحبل على الجـرار.

× ورقة قدمت في ملتقى سطيف للمرأة المبدعة مارس 2007

عن الصحافة الحرة التي نريد؟..

"..والحرية قوام الحياة الأدبية الخصبة فإذا ذهبت أجدب الأدب وعقم التفكير ما في ذلك شك، وقد قال نابليون ذات يوم(ليس لدينا أدب جيد وتبعة ذلك على وزير الداخلية) فقد أحس نابليون - وهو الفنان الأديب وليس فقط القائد العسكري الملهم- أن رقابة وزير الداخلية على الكتاب-والصحافة- قد ذهبت برونق الأدب و اضطرته إلى العقم والجدب.." (طه حسين،خصام ونقد،ص9) بتصرف.

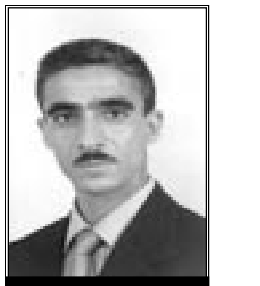

■ بقلم:عبد الحق خالد

● لعلّه ليس من الجديد ولا المثير تكرار تلك المقولة التي مؤداها أن "الصحافة ركن من أعظم الأركان التي تشيد عليها دعائم الحضارة والعمران..." "التي كان" نابليون بونابرت" يرددها كثيرا،أو تلك العبارة الشهيرة التي كان يحلو للرئيس الأمريكي "روزفلت" أن يكررها"يجب أن يكون كاتب صحفي بين كل عشرة مواطنين في هذه البلاد...".

ليس من الجديد ولا المثير إذن التذكير بتلكم المقولات الصادرة عن صنّاع التاريخ هؤلاء ومشيّدي الدول!إذ لا يختلف عاقلان حول دور الصحافة الكبير وتأثيرها الخطير في مسار الأحداث وحياة الشعوب منذ نشأتها إلى يوم الناس هذا،بل لعله اليوم أكثر خطورة من أي وقت مضى،ونحن نرى بأم أعيننا ما تفعله الصورة الرقمية في ثوان بعقول ونفوس الناس حين تطوي المسافات وتلغي الحدود والقارات ناقلة الأحداث لحظة وقوعها!

وحدها الصحافة إذن تنفرد بهذا الدور الخطير عندما تنقل بصدق هموم واهتمامات الناس..عندما تصف الواقع كما هو أو تنقده كاشفة عن مثالبه وعوراته...وعندما تُسمع صوت"المعذبين في الأرض" لأصحاب البروج العاجية،وقد تتجاوز هذا الدور فتنشر الوعي وترسي أخلاق التحضر وثقافة الاختلاف واحترام الآخر،وبذلك تشارك في صناعة الرأي العام وتوجيهه والتأثير عليه،بما يتيح لأصحاب القرار وأهل"الحل والعقد"فرصة المراجعة والتقويم وإعادة النظر بما يدفع عجلة البناء إلى الأمام...كل ذلك في حرص على تغليب المصالح الوطنية العليا للدولة وعلى أساس من التخطيط متين.

وفي عالمنا العربي...وفي أشد لحظاته التاريخية حرجا وتأزما، أيام كان يرزح تحت نير الاستعمار بمختلف أشكاله ومسمّياته "وبالضبط من أواخر القرن التاسع عشر وإلى منتصف القرن العشرين"سار القلم جنبا إلى جنب مع السيف والبندقية في خوضهم لمعركة التحرير المقدسة!...ولم تكن معركة التحرير هذه سوى إعطاء كلمتي"حرية التفكير وحرية التعبير"معناهما المقدس،إلى جانب تحرير الأرض والإنسان من الرق والعبودية...وهو الدور الذي اضطلعت به الصحافة عندما تسنّى لقادة الرأي وقادة الفكر في تلك الحقبة استغلال ما أتيح لهم من هامش حرية-على ضآلته- للتعبير وتنوير الرأي العام الذي كبلته البلادة فبات سادرا في سبات عميق بفعل التفقير والتجهيل و....!؟ولعل الجميع يتذكر الروح الثوري الذي كان يطبع تلك المقالات النارية في تصديه ومهاجمته للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية أو تلك المعارك القلمية التي حاولت نفث الروح في الحياة الفكرية والأدبية بما أثارت من قضايا لم يألفها العقل العربي المعلب فشغلت الرأي العام ردحا من الزمن،و في أدائها لهذه المهمة العسيرة كانت تحاول الإفلات من رقابة الاستعمار وقبضته الحديدية ووسائله الجهنمية في إدارة "الصراع الفكري"في البلاد المستعمرة،!..وقد كان من حرية الصحافة في ظل الاستعمار أن كان الاختلاف في الرأي بين مثقفي "أبناء المستعمرات"مقبولا إلى حد التناقض،فليس هناك من يزعم امتلاك الحقيقة أو يسمو على النقد "فيعلو ولا يعلى عليه"؟!...حتى إننا نجد من كتاب تلك الفترة في المشرق من شكك في القرآن الكريم،ومن أثار إشكالية الحكومة في الإسلام،أدينية هي أم مدنية؟ (الإسلام وأصول الحكم)...الخ،ونشرت الصحافة ذلك،ونشرت رد الرادين عليه بلطف أو بعنف!ووُجد في مغربنا العربي من شكك في وجود شيء اسمه "الأمة الجزائرية"ومن دعا إلى الاندماج والتجنس...الخ، ورد عليه العقلاء بالدليل الواقعي والتاريخي وقارعوه بالحجة العلمية وليس بوسائل أخرى!.

ولا أحب أن يُحمل كلامي هنا أو يفهم منه أننا عشنا"أزهى أيام حرية التعبير"في ظل ظروف الاستعمار والقهر،فليس لعاقل أن يصدق هذا إلا أن يكون من المروجين لقانون(فبراير2005)الممجد للاستعمار!ولا مسوغ للحديث عن المضايقات أو القمع الذي طال المثقفين عامة،حيث كان يبدأ بمنع الكتاب من النشر أوإيقاف الصحيفة عن الصدور ولا ينتهي بحبس الواحد منهم أو نفيه،إذ كثيرا ما كان ينتهي باغتياله وموته شهيدا..شهيد الكلمة التي آمن بها فأرادها حرة تكسر القيود وأرادت آلة البطش إسكاتها إلى الأبد!..هذه قضية يجب أن تكون واضحة وهي ليست موضوع هذه المقالة.

وإنما الذي قصدت إليه أن استغلال أصحاب الأقلاممن يعرفون للقلم دوره وقيمته وخطورته حين يجد الجد- لهامش الحرية المسموح به في تلك الأوضاع الصعبة،على اختلاف مرجعياتهم وقناعاتهم والمدارس التي ينتمون إليها، هذا الاختلاف البالغ حد التناقض أحيانا كثيرة هو ما شكّل ثراءاً لم يخدم"قضية التحرير والمصير"ويعرف بها أمام العالم وحسب وإنما انتقل بالفكرو الثقافة والأدب أشواطا ودفع بالصحافة قدما في اتجاه كسب معركة الصعود الذي لا يقهرفي مضمار الصراع الإعلامي..

فكيف هي الحال اليوم مع بداية ألفية جديدة أين تمثل الصحافة(مكتوبة ومسموعة ومرئية)السلاح الأشد فتكا في كسب معركة الثقة والمصداقية،أي كيف هو واقع الصحافة الجزائرية في زمن التعددية السياسية والحرية الإعلامية؟وبعبارة أخرى،هل واصلت هذه الصحافة نموها الهادئ البطئ- ولكن بثقة في النفس والنصر-باتجاه نيل استقلاليتها وباتجاه الاحترافية الحقة لتكون فعلا "صحافة حرة" لا صحافة واجهة؟!..

الحقيقة أن مكانة الصحافة في بلد ما تتحدد بوضعية الحقوق والحريات فيه،فإن كان هذا البلد منغلقا على ذاته قامعا للحريات الفردية والجماعية،كانت الصحافة متخلفة لا تعدو أن تكون"رجع صدى"للفئة المهيمنة على السلطة- المستأثرة بالثروات دون باقي أفراد الشعب فيه!..وإن كان هذا البلد متمدنا تجذرت فيه الممارسة الديمقراطية وثقافة الاختلاف،يؤمن بالتعددية السياسية والتنوع الثقافي والفكري...الخ،فإن الصحافة هنا تكون المرآة التي تعكس هذا المستوى من النضج والرقي الذي بلغه المجتمع ويكون في مُكنتها ممارسة دورها كاملا(كسلطة رابعة)على الأرض..وما استقالة الرئيس الأمريكي "ريتشارد نيكسون"بعد هزيمة فيتنام وفضيحة "وتر قايت"إلا مثالا بسيطا من أمثلة كثيرة تؤكد هذه الحقيقة..

لست هنا بصدد محاكمة الصحافة-ولا أعتقد أن هذا من حقي-أو توجيه أصبع الاتهام لها ،فمن حق الصحافة الوطنية،وأنا هنا أتكلم عن الصحافة كعامل بناء لا كمعول هدم!...دعك مما يسمى "الصحافة الصفراء"!أو صحافة الإثارة والابتذال، فقد نذرت نفسها لدغدغة غرائز المنحرفين وتهييج عواطف المراهقين،ولا يخفى على أحد أمر أصحابها من عبيد الشهوات وغير الأسوياء المخنثين!فهي لا تدخل في نطاق هذا الحديث!..أقول:من حق الصحافة الوطنية الجادة، صحافة الجزائر العميقة أن تتباهى بما قدمت من خدمات للمجتمع لا ينكرها إلا جاحد،وما بذلت من جهود وتضحيات بلغت حد تقديم "القرابين"على مذبح الحرية،ما بوأها مكان الصدارة عن جدارة واستحقاق في مرحلة ما،قبل أن نشهد هذا التراجع المثير للقلق في السنوات الأخيرة،وأن تعتذر-إذا كان لابد من الاعتذار-عما شاب رسالتها من تقصير،بما تتعرض له من تضيق وخنق وبظروف عمل المنتسبين إليها ومعاناتهم اليومية أوما يطال رجالاتها من الضغوط النفسية والمادية، ما وهو ما يطرح علامة استفهام ويثير تساؤلا مشروعا:هل نريد فعلا للصحافة الجزائرية أن تكون حرة حتى تؤدي دورها كاملا تقول للمحسن أحسنت وللمسيء اسأت!أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد واجهة مزينة بعشرات العناوين والقنوات الإذاعية والتلفزيونية،مهيأة للاستهلاك الداخلي والخارجي لا غير!؟

ربما كنت قاسيا في محاسبة صحافتنا التي نريدها "صحافة رسالية" تشيع معاني الخير والواجب-وليس الحق فقط-و الجمال والذوق..ونريدها حرة طليقة تنشد الكمال وتراهن على الإسهام في بناء المجتمع المتحضر الذي نصبو أليه.. ونريدها قوة بناء حقيقية لايغريها "الرضا عن النفس "أويثنيهاعن مواجهة نقائصها بشجاعة،بمزيد البذل والعطاء والصبر على المكاره: فما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا!

في مجتمع لا يقرأ-قرابة السبعة ملايين أمي،وهذه مسألة جد حساسة إذ يمكننا تصور المفعول السحري للصورة في احتكار عقول هؤلاء-ومن يقرأ لا يتجاوز العناوين(أتحدث عن الصحف وليس الكتب،فتلك مسألة أخرى)لأنه يطلب السهل"الفاست فود"ولا يريد أن يتعب نفسه،علينا أن نقر أن الصحافة "المستقلة"ساهمت بشكل إيجابي في إثارة مواضيع،وطرح مسائل كثيرة للنقاش كانت إلى وقت قريب من الطابوهات التي لا يجوز الاقتراب منها،فخلقت ديناميكية غبطنا عليها غيرنا،لكن أستطيع أن أزعم أن الصحافة المستقلة هذه لا تزال-بشكل ما-حبيسة ممارسات وذهنيات من عهد الأحادية الفكرية والأبوية المتسلطة...فقد انزلقت-من حيث أرادت أم لم ترد- إلى ممارسة الإقصاء والاحتكارية المقيتة والانتقائية وحتى البيروقراطية التي تعيبها على مؤسسات الدولة وأجهزتها الرسمية،بل رضيت لنفسها الانحياز فتحولت إلى "سيف الحجاج"في يد هذا الفريق أو ذاك من الأجنحة المتصارعة سواء داخل السلطة أو خارجها،فتورطت بأن أصبحت طرفا في نزاعات كثيرة كانت في غنى عنها،ولا تخدمها بقدر ما تخدم مصالح"العُصب" المتناحرة!وهو ما أساء لسمعتها وأعطى للغير فرصة اتهامها بالانتهازية والابتزاز؟..ثم إن الحرب الدائرة رحاها بين أهل المهنة ذاتها هي على كل لسان،وكثيرا ماكانت الصحافة نفسها هي الأداة لنشر هذا الغسيل؟!..

وسأسوق مثالا بسيطا من الواقع"إذ بالمثال يتضح المقال"كما يقولون،وهو يبين إلى أي حد عجزت هذه الصحافة عن تجاوز نفسية الإقصاء والانتقائية وفضلت-راضية عن نفسها-السير مع تيار التقوقع على الذات من غير انفتاح على الآخر بتداول نفس الأسماء واحتكارها لما تعتبره مواقع لا يمكن لأحد أن يشاركها فيها،وهو ما غيّب ثقافة الجد والاختلاف المثمر إرضاء للحق والحقيقة،ورأينا حظ أصحاب الجد-خارج دائرة الاحتكار- "الحشف وسوء الكيلة"!؟كما يقول المثل العربي السائر،وإلا ما معنى أن ترفض جريدة ترفع شعار الاستقلالية وعدم التبعية..الخ-وكل الصحف تفعل ذلك-وتمرغه في التراب حين ترفض نشر رأي أو نقد لمقال أو آراء وأفكار نـُشرت على صفحاتها بحجة أن صاحب المقال المستهدف بالنقد هو اسم بارز في عالم الصحافة والكتابة،وهو بهذا-أي والله!-بهذا اللقب وحده يستعصى على النقد، بل إن هذا النقد ربما شوه سمعته وحط من قدره ؟ولا يجد"صاحب الاسم المغمور"الذي تجرأ على نقد الاسم البارز وإن كان موضوعيا-لم يتهجم أو يتهكم-الوسيلة التي تمكنه من إبداء رأيه وممارسة حقه في التعبير عن أفكاره وقناعاته بنقد كتابات الأستاذ الكبير التي هي ليست كتابات ْكبيرةً بالضرورة؟ ويسعى جاهدا بين مختلف الصحف فلا تمكنه من هذا الحق،مرة بحجة أنها لم تكن منبر تلك الكتابات وأخرى بحجة أنها لا تريد أن تفتح على نفسها جبهة جديدة مع هذه الجهة أو تلك،وثالثة ...؟!لكن لا بأس أن تخصص الصحافة الجادة عندنا صفحات كاملة لتعقب الفضائح الأخلاقية لهذا النجم أو ذاك من نجوم "الراي" وتتساءل مفجوعة إن كان سيلقى عليه القبض أم لا،وهل وهل ..؟؟ ولتذهب الحقيقة والموضوعية إلى الجحيم!؟..ثم ماذا ؟

ثم تسمح صحافتنا المحترمة لنفسها أن تدين ما تسميه"الأساليب السطالينية"للسلطة وممارساتها غير الديمقراطية وغير...

هذه الصورة البسيطة،وهي غيض من فيض،إنما تكشف مدى التراجع الذي يعرفه المشهد الإعلامي في الجزائر وتعطي صورة "كريهة"عن الغلق المطبق لصحافتنا الحرة،وهو مشهد كاريكاتوري ليس أقل إثارة للضحك من "الكاريكاتوريات"المسموح لها بانتقاد الدولة ورموزها بما في ذلك الرئيس!للتدليل على ما وصلته الصحافة من حرية تحلم بالوصول إليها-هكذا يرادپ تصوير الأمر-الصحافة في باقي أقطارنا العربية..

ربما كنت قاسيا في محاسبة صحافتنا التي نريدها "صحافة رسالية"تشيع معاني الخير والواجب-وليس الحق فقط-و الجمال والذوق..ونريدها حرة طليقة تنشد الكمال وتراهن على الإسهام في بناء المجتمع المتحضر الذي نصبو أليه.. ونريدها قوة بناء حقيقية لايغريها"الرضا عن النفس"أويثنيهاعن مواجهة نقائصها بشجاعة،بمزيد البذل والعطاء والصبر على المكاره: فما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا!

وأنا بعد ذلك أؤمن أن الكلمة قوة...قوة بناءة أو قوة مدمرة..نعم!إن قوة الكلمة لهي من قوة الفكرة التي تستحوذ على عواطف الإنسان ومشاعره فتؤدي إلى تغيير مصيره على وجه هذه الأرض،والصحافة تملك هذا السلاح الرهيب الذي يمكنها الاستحواذ على عقول الناس ونفوسهم و..وتغيير مصيرهم على وجه هذه الأرض!..ولم يخطئ ذلك الأديب الذي أعلن ذات يوم"الحياة جميلة،وإذا أنت لم تفسدها جاءتك أثمن هداياها وإذا أنت آمنت لم تعد بمقدار قوتك ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن"

فلنأمل أن نرى "صحافة حرة"في كعبة الأحرار،صحافة تقف في صف الشعب،تعبر عن همومه وانشغالاته،وتترجم عواطفه وآماله في مستقبل الأيام،وما ذلك على المناضلين الشرفاء من أصحاب الأقلام النظيفة بعزيز"؟!

×كاتب -قالمة-